المرأة في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور
دراسة تحليلية

دكتورة/ وفاء محمد محمد يوسف

مستخلص:

رضوى عاشور (١٩٤٦ -٢٠١٤): روائية وناقدة وأستاذة جامعية مصرية، درست الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة، تُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والإندونيسية، نالت عديد من الجوائز، منها: جائزة سلطان العويس للرواية والقصة عام ٢٠١٢م، وحصلت (ثلاثية غرناطة) على جائزة أحسن رواية من معرض القاهرة للكتاب عام ١٩٩٤م، والجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية عام ١٩٩٥م، ومن أعمالها الروائية (سراج – ثلاثية غرناطة – أطياف قطجه من أوروبا – فرج– الطنطورية – أثقل من رضوى)، لها عدة دراسات نقدية منها: "الحداثة الممكنة": الشدياق، والساق على الساق، والطريق إلى الخيمة الأخرى" و"صيادو الذاكرة " و"التابع ينهض".

هذه الرواية "ثلاثية غرناطة" لها قيمة أدبية وسياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وتربوية، لا تخفى على كل من قام بدراستها أو الاطلاع عليها، وهذا ما دفعني للبحث فيها، واخترت لهذه الدراسة عنوان: "دور المرأة في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور – دراسة تحليلية"، أتناولها من الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، ودور المرأة في كلا الجانبين، وتأثيرها وتأثرها.

كشفت الدراسة أن المجتمع كان مزيجًا من أحاسيس مختلفة ومن غرناطة ومالقة، وبلنسية، تحت ظل الحكم القشتالي، وغير ذلك تجاوزت أول الأمر، ثم تفاعلت فيما بينها إلى حد الانصهار بين المجتمع الأندلسي والقشتالي الذي يتجلى في عدة مظاهر أبرزها الحياة اليومية المشتركة، فالزمن استطاع ظاهريًا أن يكون منهم خليطًا متجانسًا تذوب فيه الفوارق على تنوعها.

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، سبحانه لا إله إلا هو، نحمده حمدًا كثيرًا كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، ونشهد أن سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه خاتم الأنبياء والمرسلين.

رضوى عاشور (١٩٤٦ -٢٠١٤): روائية وناقدة وأستاذة جامعية مصرية، درست الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة، حصلت على الماجستير في الأدب المقارن عام ١٩٧٢، وعلى الدكتوراه في الأدب الأفريقي الأمريكي من جامعة ماساتشوستس عام ١٩٧٥. تُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والإندونيسية، نالت عديد من الجوائز، منها: جائزة سلطان العويس للرواية والقصة عام ٢٠١٢م، وحصلت (ثلاثية غرناطة) على جائزة أحسن رواية من معرض القاهرة للكتاب عام ١٩٩٤م، والجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية عام ١٩٩٥م، ومن أعمالها الروائية (سراج – ثلاثية غرناطة – أطياف قطجه من أوروبا – فرج– الطنطورية – أثقل من رضوى)، لها عدة دراسات نقدية منها: "الحداثة الممكنة": الشدياق، والساق على الساق، والطريق إلى الخيمة الأخرى" و"صيادو الذاكرة " و"التابع ينهض".

هذه الرواية "ثلاثية غرناطة" لها قيمة أدبية وسياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وتربوية، لا تخفى على كل من قام بدراستها أو الاطلاع عليها، وهذا ما دفعني للبحث فيها، واخترت لهذه الدراسة عنوان: "دور المرأة في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور – دراسة تحليلية"، أتناولها من الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، ودور المرأة في كلا الجانبين، وتأثيرها وتأثرها.

أهمية الدراسة:

وتتجلى أهمية الدراسة فيما يلي:

١ – الرغبة في الوقوف على حياة الروائية رضوى عاشور التي قدمت جهدًا كبيرًا في تلك الرواية "**ثلاثية غرناطة**".

٢– الوقوف على دور المرأة الأندلسية في تلك الحقبة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية وتطبيقها على رواية "**ثلاثية غرناطة**" ودورها الفعال لإعادة التوازن للمجتمع الغرناطي في تلك الحقبة التي كانت تشهدها الأندلس في العصر الغرناطي.

٣– إلقاء الضوء على الأحوال الاجتماعية والدينية والسياسية، والموروثات الشعبية التي مرت بها غرناطة في دولة بني الأحمر آخر عصور الإسلام في الأندلس.

أسباب اختيار الموضوع:

يأتي اختياري لهذه الدراسة للأمور التالية:

١- الوقوف على أبرز المفاهيم الإجرائية للجوانب الاجتماعية، والاقتصادية وعرضها نظريًا، تم اختيار بعض المفاهيم وتطبيقها على رواية ثلاثية غرناطة.

٢-تحليل بعض الشخصيات النسائية في الرواية، ودورها الرئيس، والثانوي من أجل توصيف دقيق لحضور القارئ في هذا العمل الأدبي.

٣- الوقوف على بعض أنماط الحياة الاجتماعية المشتركة بين المجتمع الغرناطي والحكم القشتالي، وكذلك الحياة الاقتصادية ودور المرأة في تحقيق المعادلة الصعبة بين التمسك بالعادات والتقاليد الإسلامية، ومسايرة الحكم القشتالي المستبد.

منهج الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على اتباع المنهج البنيوي، فالبنيوية هي التي تدرس النسيج الجمالي الذي تنتظم فيه مفاصل الرواية في مستوياتها السردية والذهنية بعلاقات تشابكية ومنسجمة ومؤولة تركيبًا دلاليًا وتداوليًا، بمعنى أنها تعتبر العمل الأدبي كلًا متكاملًا مكوناً من عناصر مختلفة تحدد في نهاية الأمر البنية الأدبية المتكاملة.

الدراسات السابقة:

كثرت الدراسات السابقة التي تناولت رواية ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور، ولكن لا توجد دراسة على حد علم الباحثة حول مفهوم "**دور المرأة في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور** دراسة تحليلية، ولكن هناك دراسات تناولت رواية ثلاثية غرناطة من محاور أخرى، نذكر منها:

١. شعرية الوصف في رواية ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور – سومية مسلم، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في ميدان اللغة والأدب العربي، ٢٠١٤-٢٠١٥.

٢. تطور البناء الدرامي التاريخي في روايات رضوى عاشور ١٩٩٢م-٢٠١٠م، د. خلود إبراهيم عبد الله جراء، لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، ٢٠١٣م-٢٠١٤.

٣. مرايا الأنا والآخر في ثلاثية غرناطة لوضوى عاشور رؤية فنية، د. مؤمنة حمزة عبد الرحمن عون، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية (م) ٢ العدد من الخامس والعشرين.

٤. تقنيات السرد الزمني في الرواية التاريخية (ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور نموذجًا) صبيحة عودة زعرب مجلة جامعة الزيتونة الأردنية للدراسات الإنسانية والاجتماعية مجلد (٢) الإصدار (١)، ٢٠٢١م.

خطة البحث:

ستقوم هذه الدراسة في الصفحات التالية وفق خطة مكونة من:

المقدمة: وتتضمن: أهمية الدراسة، مشكلة البحث الدراسات السابقة، خطة البحث.

المدخل ويتضمن: المولد والنشأة.

الفصل الأول: بعنوان دور المرأة الاجتماعي في ثلاثية غرناطة، ويشمل على:

- مضمون الرواية.
- المرأة في المجمع الأندلسي.
- المفاتن الحسية والمعنوية للمرأة الغرناطية.
- دور المرأة الأندلسية في الأسرة.
- دور المرأة الأندلسية في المجتمع.
- العادات الاجتماعية للمرأة الغرناطية في ثلاثية غرناطة.
- النظافة العامة.
- الحلي والزينة.
- الملبس.

الفصل الثاني: بعنوان دور المرأة الاقتصادي في ثلاثية غرناطة، ويشتمل على:

- المجال الاقتصادي: الزراعة، الخبز، البيع والشراء.
- الجواري.
- المومسات.

مـــدخـــل

رضوى مصطفى عاشور، كاتبة مصرية معاصرة، ولدت في القاهرة يوم ٢٦ مـــايو عام ١٩٤٦م، الموافق ٢٤ من جمادى الآخرة، عام ١٣٥٦ه، من أبوين مصريين، وهـــي المولود الثاني للأسرة المكونة من أربعة أبناء، درست رضوى عاشور عامها الدراســـي الأول في مدرسة الراهبات، ولم تكن تجربتها في تلك المدرسة ممتعة؛ لصرامة راهبـــات المدرسة، الأمر الذي لم ينسجم وطبيعتها المرحة التواقة لمـــساحة أكبـــر مـــن الحريـــة والانطلاق، مما جعل أباها يصطحبها إلى مدرسة أخرى فرنـــسية، اســـتطاعت التكيـــف بشكل أفضل، أُممت تلك المدرسة عام ١٩٥٦، نتيجة لحركـــة التغييـــر الجذريـــة التـــي تلازمت وحركة الضباط الأحرار، ولامس التغيير اسم المدرسة أيـــضًا ليـــصبح اســـمها عربيًا يناسب المرحلة، درست رضوى عاشور في هذه المدرسة تـــسع ســـنوات، مـــن أكتوبر ١٩٥٢م حتى يونيه ١٩٦٠، وهي فترة دراستها للمرحلة الابتدائية المتوسطة، ثـــم انتقلت إلى مدرسة أخرى، لتكمل دراستها الثانوية(١).

لعل طبيعة رضوى عاشور التواقة لمساحة أكبر من الحرية والاندفاع التي تتنـــاقض مع تجربتها في مدرسة الراهبات كانت السبب الرئيس لإلحاحها في الانتقال إلى مدرســـة عربية، وهذه التجربة القاسية التي مرت بها رضوى عاشور في طفولتها أثمرت لنا أهـــم رواياتها: رواية ثلاثية غرناطة، فهناك عامل مشترك بين أحـــداث طفولتهـــا، وأحـــداث رواية ثلاثية غرناطة، يتمثل في قمع اللغة العربية، ومحاربتها والقضاء عليها، فمحبتهـــا للغة العربية منذ الصغر ترجمته لعمل روائي عظيم، يعيد فيه التاريخ نفسه مـــا شـــهدته غرناطة، وبلاد الأندلس في الماضي، وما تشهده من طفولتها الحاضرة.

فقول معللة للقارئ، سببه انصرافها من مدرسة الراهبات: حين تركت المدرسة فـــي مطلع صيف ١٩٦٠م بعد أن استجاب أبى لإلحاحي بالانتقال إلى مدرسة عربيـــة، كنـــت تعلمت أشياء كثيرة ومررت بتجارب كثيرة، منها الخوف، فهناك عشرات المواقف ربمـــا أبرزها "كاستانييت"، المشرعة الطويلة النحيفة التي كانت تحمل فـــي يـــدها تلـــك الآلـــة الخشبية الأقرب لصاجات راقصات الفلامنكو، وإن كان لهـــا وظيفـــة المـــدير، مـــا أن لتسمعها تتيقن أنها على وشك أن تنقض عليها بتوبيخ ما أو عقاب – ماذا فعلنا؟ الأرجـــح سمعتنا نتحدث باللغة العربية الآن فقط، وبعد نصف قرن أنتبه أن الأمر المُلزم بمنعنا من

(١) خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي من روايات رضوي عاشور، رسالة استكمال متطلبات الحصول على الماجستير في اللغة العربيـــة وآدابهـــا، ٢٠١٣– ٢٠١٤، ص ٢٥.

الحديث في المدرسة باللغة العربية قد يكون السبب الأول في محبتي لهذه اللغة، وشعوري بأن حصة اللغة العربية هي فسحة من نوع ما، أقرب لخروج السجناء من زنازينهم ليروا الفضاء والشمس(١).

عاصرت رضوى عاشور حقبة الاستعمار التي تعرضت لها مصر في تلك المدة، ولعل نرجع محبتها للغة العربية، وبعضها لمدرسة الراهبات يعد بمثابة شكل من أشكال التعبير الوطني الخالص، ونبذ الاستعمار ورموزه.

أغسطس ٦٧ على مائدة الغداء أعلن أبوها الخبر، وهو يضحك "ليسانس امتياز مع مرتبة الشرف الأولى" لم تضحك ولم تقل شيئًا انسحبت إلى غرفتها.

العام الدراس ٦٧ – ٦٨ واصلت تركيزها، على دروسها في السنه التمهيدية للماجستير(٢). في عام ١٩٧٢ حصلت رضوى عاشور على شهادة الماجستير في الأدب المقارن مصرية كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة، أيضًا وكانت في الوقت نفسه تدرس في جامعة عين شمس وتشارك الطلاب احتجاجاتهم في ميدان التحرير احتجاجًا على الأوضاع الاقتصادية والسياسية في عهد أنور السادات(٣).

ترافق النزعة الإنسانية حياة الروائية رضوى عاشور في أثناء سفرها التعليمي المنبعث من أعماقها، وأفكارها من أجل المضطهدين، فتركيزها في الرحلة نبعث شكل المذكرات التي تركز في فترة محددة من حياة المؤلفة، وفي سنوات الدراسة في أمريكا في الفترة ما بين عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٥(٤).

جهودها العلمية وآثارها الأدبية

شغلت رضوى عاشور العديد من المناصب المهمة في أثناء عملها في جامعة عين شمس، ومن هذه المناصب فضلًا عن وظيفتها أستاذة بكلية الآداب جامعة عين شمس:

أولًا: الرئيس الأسبق لقسم اللغة الإنجليزية وآدابها (١٩٩٠ – ١٩٩٣).

ثانيًا: مقررة اللجنة العلمية الدائمة لترقية أساتذة اللغة الإنجليزية، وآدابها في أقسام اللغة الإنجليزية وآدابها في الجامعات المصرية (٢٠٠٨-٢٠٠١)

(١) رضوى عاشور: أثقل من رضوى، ط١، ٢٠١٣، دار الشروق، ص ٢٦١.

(٢) رضوى عاشور: أطياف، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٨، ص٦٠.

(٣) خلود إبراهيم : تطور البناء الدرامي من روايات رضوى عاشور، مرجع سابق، ص ٢٦

(٤) فاتن مرسي: المنديل المعقود، دار الشروق، ط١، ٢٠١٦، ص ٥٨.

ومن أعمالها المهمة:

- أشرفت على عشرات الرسائل الجامعية المقدمة لنيل الماجستير، والدكتوراة وقَيمت عشرات الأبحاث المقدمة للحصول على درجتي أستاذ، وأستاذ مساعد وعلى درجتي الماجستير والدكتوراة.
- ترجمت بعض رواياتها، وقصصها القصيرة إلى الإنجليزية، والإسبانية، والإيطالية والإندونيسية.
- شاركت رضوى عاشور في الحياة الثقافية العربية عبر كتبها، ومقالاتها، ومحاضرتها في مصر وفي مختلف العواصم العربية، وعبر انتمائها إلى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية واللجنة الوطنية لمقاومة الصهيونية في الجامعات المصرية.
- شاركت لعدة سنوات في تحكيم جائزة الدولة التشجيعية في مصر، وفي عضوية لجنة القصة والتفرغ بالمجلس الأعلى للثقافة في مصر.

نالت الكاتبة عددا من الجوائز العلمية تقديرا لجهودها ومنها..

- يناير ١٩٩٥، جائزة "أفضل كتابة " لعام ١٩٩٤ من الجزء الأول من ثلاثية غرناطة، من معرض القاهرة الدولي للكتاب، نوفمبر ١٩٩٥، الجائزة الأولى من المعرض الأول لكتاب المرأة العربية عن ثلاثية غرناطة، وكُرمت هي أيضًا عام ٢٠٠٣ [(١)].

(١) خلود إبراهيم: تطور البناء الدرامي من روايات رضوى عاشور، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٦.

الفصل الأول: دور المرأة الاجتماعي في ثلاثية غرناطة

- **مضمون الرواية**
- **المرأة في المجتمع الأندلسي**
- **المفاتن الحسية والمعنوية للمرأة الغرناطية**
- **دور المرأة الأندلسية في الأسرة**
- **دور المرأة الأندلسية في المجتمع**
- **العادات الاجتماعية للمرأة الغرناطية في ثلاثية غرناطة**

تُعد "ثلاثية غرناطة العمل الروائي الأعظم الذي حصد العديد من الجوائز العلمية على مدار أعوام متباينة، مما يؤكد على أهميته القصوى بين أعمالها الروائية المتعددة.

ثلاثية غرناطة هي ثلاثية روائية تتكون من ثلاث روايات للكاتبة المصرية **رضوى عاشور** وهي:

الأولى: غرناطة: تلك المملكة الأندلسية الإسلامية الأصل التي تدور في فلكها أحداث الرواية منذ البداية حتى السقوط.

الثانية: مريمة، الجزء الثاني من الرواية الذي يمثل ذروة الأحداث، وصعودها إلى القمة، و**مريمة** شخصية رئيسة من شخصيات الثلاثية في الرواية الأولى غرناطة "ولكن براعة الكاتبة الروائية رضوى جعلتها في هذا الجزء شخصية رئيسية تتمحور حولها الأحداث، وهذه سمة فنية فريدة من نوعها، تميزت به الروائية، حيث جعلت **مريمة** الشخصية الثانوية في الجزء الأول من الرواية إلى شخصية رئيسية في الجزء الثاني في الثلاثية، بل اطلقت اسمها على الجزء الثاني مشيرة إلى أهميته ودورها في حراك الأحداث.

الثالثة: الرحيل، فالموت كان متمثلًا في الرحيل عن الأندلس وليس البقاء فيها، وتدور الأحداث في مملكة غرناطة بعد سقوط جميع الممالك الإسلامية في الأندلس، وتبدأ أحداث الثلاثية في عام ١٤٩١م، وهو العام الذي سقطت فيه غرناطة بإعلان المعاهدة التي تنازل بمقتضاها أبو عبدالله محمد الصغير –آخر ملوك غرناطة– عن ملكه لملكي قشتالة وأراجون. وتنتهي بمخالفة آخر أبطالها الأحياء (علي) لقرار ترحيل المسلمين حينما يكتشف أن الموت في الرحيل عن الأندلس وليس البقاء فيها.

وبالنظر إلى العناوين السابقة، فقد لمسنا أن الجزء الثالث رغم محدوديته إلا أن دلالات الرحيل هي الأكثر وقعًا على حياة الشخصيات، حيث ارتبطت حياتها إما بالموت أو المرض أو القتل لتنتهي الرواية بعبارة مفاداها أن الحضارة الإسلامية والثقافة العربية لن تزول بطرد العرب المسلمين من الأندلس، وستعود على يد الأجيال في يوم ما[١].

فالقارئ لثلاثية غرناطة يجد أن اختيار الكاتبة لأسماء الشخصيات له مدلول يتناسب مع دور الشخصية:

يرسم خيال المؤلف شخصيته وأدوارها التي تلعبها، مستمدًا رؤاه من خياله وواقعه الذي يعيشه، ومن خلال تصوره للواقع المعاش، قد يتبنى شخصية، أو فكرة ما يمارس خلالها عمله ووظيفته الكتابية أو الإبداعية[٢].

فأحداث رواية "ثلاثية غرناطة" تدور بين عدد من الشخصيات الرئيسة وفقًا لما ورد في الثلاثية على النحو التالي:

أبو جعفر: أبو جعفر الوراق جد العائلة، راعي العائلة التي تدور حولها الأحداث، فهذا الاسم يطلق على النهر الممتلئ، فهو رمز للعطاء بلا حدود فكان رافدًا من روافد الثقافة الأندلسية، وخير شاهد على ذلك وفاته متأثرًا بحريق الكتب.

حسن: ابن أبي جعفر، متمسك بتعليمات التنصير، والذهاب إلى الكنيسة في الظاهر فقط- تجنبًا للخلافات والمشاحنات، ولكنه مؤمن بالدين الإسلامي.

سليمة: حفيدة أبي جعفر، متعلقة كثيرًا بالكتب، مما أدى إلى نفور دائم بينها وبين زوجها (سعد) واتهامها بالسحر والشعوذة، وقد حكم عليها بالموت حرقًا بين الكتب، ولعل اختيار الكاتبة اسم سليمة يتطابق مع دورها الاجتماعي، فكانت الأدوية التي تصنعها سببًا في سلامة العديد من أهل غرناطة، كما أنها تتسم بسلامة الفكرة ورجاحة الرأي.

نعيم: شخص محب للاكتشاف، يطوف الأرض مع قسيس يؤدي دورًا مهمًا، فالمتأمل لاسم نعيم يجده اسمًا مشتركًا بين الديانتين القبطية والإسلامية والديانة القبطية على الأكثر، وهذا يتناسب مع دوره الاجتماعي؛ لأنه كان ملازمًا للقسيس، كما أنه كان محبًا للحياة وينعم بملذاتها.

(١) صبحية عودة زعرب: تقنيات السرد الزمن في الرواية التاريخية (ثلاثية غرناطة) رضوى عاشور نموذجا، مجلة جامعة الزيتونة الأردنية للدراسات الإنسانية والاجتماعية (مجلد ٢) اصدار، ٢٠٢١، ص٥

(٢) سعد عودة حسن عدوان: الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية دراسة في ضوء المناهج النقدية، رسالة ماجستير، ٢٠١٤، ص ١١

مريمة: الشخصية الرئيسة في الجزء الثاني من الرواية، وهي زوجة حسن، امرأة فطنة وذكية، ولعل اختيار الكاتبة الروائية لهذا الاسم ثنائية التسمية، فهذا الاسم يشترك بين الديانتين القبطية والإسلامية، فكان لها الدور الأكبر في إقناع عائلتها بالتنصير الظاهري، وإخفاء ديانتهم ومعتقداتهم الإسلامية.

علي: حفيد **مريمة**، أصر على البقاء في أرضه، فبعد وفاة أمه ورحيل أبيه، كان يعيش مع جدته، وهو الشخصية الرئيسية في الجزء الثالث.

سعد: زوج سليمة، ينضم إلى المجاهدين وينتهي به المطاف إلى أحد السجون.

أبو منصور: صاحب حمّامات يحب مساعدة الناس حتى يصدر قرار بإغلاق حمّاماته.

عمر الشافعي: هو شيخ قرية الجعفرية وكبيرهم، لم تعتمد عليه الكاتبة بكثرة في الرواية.

أبو عبد الله الصغير: ورد في بداية الرواية عندما أعلن عن استسلامه بعد أن ضاعت البلاد من يديه، وهذه الشخصية حقيقية وردت في كتب تاريخ الأدب الأندلسي.

الملك فرديناند والملكة إيزابيلا: هما الملكان القشتاليان اللذان وقّعا اتفاقية تسليم غرناطة، وهذه الشخصية حقيقية وردت في كتب تاريخ الأدب الاندلسيي.

موسى بن الغسان: قائد عربي مسلم، من القادة الذين حضروا اجتماع الحمراء لبحث بنود معاهدة التسليم مع قشتالة، لكنه رفضها رفضًا قاطعًا، شخصيته حقيقية وردت في كتب تاريخ الأدب الأندلسي.

سقطت غرناطة بعد حصار شديد انتهى بتسليمها، ليسقط آخر حصن إسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية، وكان الاستيلاء عليها في محرم عام (٨٩٧ هـ- تشرين الثاني ١٤٩١م) . وذلك بعد معاهدة التسليم التي أُبرمت بين حاكم غرناطة المتخاذل أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير، وبين ملكي قشتالة فرناند وايزابيلا[١].

جرت أحداث، تتضمن كثيرًا من التفصيلات، وقامت مفاوضات لجأ العدو خلالها إلى التحريش بين المسلمين وإذكاء الفتنة. وبعد حصار شديد لمدينة غرناطة ينتهي الحال بتسليمها، وهكذا سقطت غرناطة، آخر حصن إسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية[٢].

(١) رامز إسماعيل طه الحلبي، عوامل سقوط الأندلس (٩٢هـ -٧١٢م) (٨٩٧هـ- ١٤٩٢م) استكمالاً متطلبات الحصول على درجة الماجستير، فلسطين، ٢٠١١، ص ١٩٣،١٩٤

(٢) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار الرشاد، ص ٤٥٤

وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها، وأمرت البابوية أن تقرع كنائس أوروبا كلها احتفالًا بتلك المناسبة[١]، وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون في غرناطة بكل حقوقهم، وأن تظل لهم مساجدهم، وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف، ويهاجر منهم من أراد، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة، ثم بدأت سياسة الاضطهاد ضد مسلمي غرناطة الذين دخلوا في حملة المدجنين أي المسلمين الذين دجنوا في مواطنهم تحت حكم النصارى وقبلوا حكمهم، وقد ثار المسلمون على تلك المعاملة مرة بعد أخرى، ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩م، أيام الملك فيليب الرابع، وبذلك انتهت قصة الإسلام في شبه الجزيرة، وإن بقيت آثاره الحضارية إلى اليوم.[٢]

وبسقوط غرناطة سقطت الأندلس نهائيًا، وأسدل الستار على تاريخ والمسلمين فيها، ليخسر هؤلاء أهم موقع استراتيجي يمثل البوابة الغربية للقارة الأوروبية، ولمثل هذا فلتبكِ كل عين فياضة دموع الدم[٣].

وأخيرًا

تجد في رواية ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور وصفًا مفصلًا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية لغرناطة قبيل وبعد الاحتلال القشتالي، وكذلك وصفًا للظلم الذي كانت تعانيه، من القشتاليين الذين استباحوا القتل وهتك الأعراض، وحاولوا مستميتين تنصير المسلمين، وطمس هويتهم، وتخريب كل ما له علاقة بالحضارة الإسلامية كالكتب والمساجد وغيرها[٤].

المرأة في المجتمع الأندلسي:

مرت المرأة في أطوار عديدة منذ أقدم العصور، فقد تأرجح وضعها، وفي الجملة كان وضعًا مثيرًا للشفقة؛ لما حملته من امتهان وتقليل من شأنها، حتى جاء الإسلام بدوره، فمنحها الحقوق والواجبات، والمكانة العالية العظيمة، لأنها محور المجتمع، ومربية الأجيال، فإن صلحت صلح المجتمع كله.

(١) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ هـ)٧١١ – ١٤٩٢م)، دمشق- بيروت، دار القلم، ط٢، ١٩٨١م، ص ٥٢٢

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥٥

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، بيروت، لبنان، دار النفائس، ص ٦١٣

(٤) سومية مسلم: شعرية الوصف في رواية "ثلاثية غرناطة " لرضوي عاشور: مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، ٢٠١٤ – ٢٠١٥ ص ٧٤ .

وقد أسهمت المرأة الأندلسية إلى جانب الرجل في بناء تلك الحضارة، فكان لها حضور في مجالات الحياة المختلفة، السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية[١].

وقد وردت المصادر الأندلسية نصوصًا عن المرأة الأندلسية ووصفها، كما جاء عند المؤرخ ابن الخطيب الغرناطي (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) بقوله: وحريمهم حريم جميل، موصوف باعتدال السمن ،وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب الشذا، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن، وقد بلغن في الزينة، والمظاهرة بين المصبغات، والتنافس في الذهبيات والديباجات، والتماجن في أشكال الحلى إلى غاية بعيدة[٢].

الصفات الحسية والمعنوية للمرأة الغرناطية

وتعقيبًا على ما ذكره المؤرخ عن جمال المرأة الأندلسية تتضح لنا ألوان شتى من الجمال، والأنوثة للمرأة في رواية ثلاثية غرناطة، والتفاخر في الزينة النسائية والحلي، والأصباغ، والملابس الجيدة والناعمة بالرغم من الظروف الاقتصادية المتدنية التي كانت تشهدها البلاد.

فنجد أن سليمة تتمع بصفات حسية معنوية، فهي كالملكة بلقيس ذات الشخصية القوية التي تأمر فتطاع، تضحك أم جعفر وتقول: "إنها كالملكة بلقيس تريد أن تأمر فتطاع، ولا يملك أحد أن يأمرها بشيء! كانت أم جعفر كثيرًا ما تشير لها مداعبة باسم بلقيس بدلًا من سليمة" [٣]

فكانت سليمة عندما تريد أمرًا تصر وتلح إلحاحًا شديدًا حتى يجاب لها ما تريده، فأصرت على ذهابها إلى الموكب القشتالي بصحبة أخيها، وبالفعل نفذت ما أرادت.

أيضا كانت سليمة تتمتع بقدر عالٍ من الجمال الحسي، وهذا يتضح لنا في تجهيز النساء لها يوم عرسها، وكانت في سن مبكرة تكاد لم تبلغ مبلغ الفتيات، ولكنها كانت تتمتع بالجمال الأنثوي، فهي كانت تجمع بين الجمال والمكابرة.

"صاحت امرأة: سبحان الخلاق عريسك مسعد يا صبية ... أشهد لك أنه مسعد يا صبية، وكانت قطرات الماء وحبات العرق تنحدر على عنق سليمة الذي يعطيه شعرها الأسود المجعد الكثيف، ويلمع بدنها الأسود متوردًا بفعل الليفة، والماء الساخن، الثديان

(١) جاسم ياسين الدرويش: دور المرأة في الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) مجلد ٤١ عدد ٤ ص ٩٣.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، المطبعة السلفية، ص ١٣٤٧
(٣) رضوى عاشور، ثلاثية غرناطة، دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٢٢، ص ٣٣

ناهضان مستديران صغيران، والخصر نحيل والردفان بهما امتلاء طفيف، تحملهما ساقان مصبوبتان، سبحان من صور[١]

"**مريمة**" الشخصية الرئيسة في الجزء الثاني من ثلاثية غرناطة، كانت تتمتع بجمال معنوي يغلب على الجمال الحسي، فكان إعجاب حسن بها نتيجة تعلق روحه بروحها، فتقول الكاتبة على **مريمة:** "ولما نظر تعلقت عيناه بالبنت غير أنها في الثانية عشرة من عمرها، أو الثالثة عشر على الأكثر. صغيرة ونحيفة، لم يتكور جسدها بعد تكور الفتاة البالغة، ووجهها خمري، وشعرها مموج أسود، وملامحها مليحة وعادية كبنات كثيرات يراهن في الأسواق، فما الذي استوقفه إذن؟ فما الذي حدث؟ هل تكون البنت من بنات الغجر اللاتي يسحرن عقول الرجال فتملأ رؤوسهم التهيؤات؟! تعلقت عيناه بها، ولما غض الطرف عرف أن روحه هي التي تعلقت، غادر المكان فبقي طيفها يلازمه"[٢]

بالرغم من صغر وحداثة سن سليمة، إلا أنها تتمتع بجمال حسي أكثر من **مريمة،** فالجمال المعنوي لدى **مريمة** يغلب على محاسنها الأنثوية، **مريمة** لم تعجب "أم حسن" فقالت له: "لا أدري ما الذي أعجبك فيها، إنها سمراء مخضرة ونحيفة كالعود، ابنة الجيران أحلى منها ألف مرة فلم لا أخطبهالك؟!"[٣].

"إذن فالجمال الذي تتمتع به **مريمة** جمال معنوي وليس حسي، كما ورد في مقطعين مختلفين، فنجد أن جمال المرأة في العصر الأندلسي له معايير، فقد اعتاد معظم الشعراء تشبه محاسن المرأة بمفاتن الطبيعة، كان جعلوا قدّها جميلًا مياسًا كالغصن الرطيب، وشعرها الفاحم الطويل كالليل الطويل، ووجها كالقمر، وزندها كالجدول في نعومتة وانسيابة"[٤].

نجد أن رضوى عاشور قد اتخذت الشعر الأسود الفاحم معيارًا هامًا من المعيار الجمالي، وهذا المعيار الجمالي متكرر في وصف نساء الثلاثية في أكثر موضع.

دور المرأة الأندلسية في الأسرة:

يختلف حال المرأة في الوسط الأرستقراطي عن حالها لدى العامة، فالمرأة الأرستقراطية (في الطبقة الخاصة) غير مضطرة بشكل عام للقيام بأي عمل داخل البيت أو خارجه؛ لأن أطفالهم يقوم بتربيتهم الجواري والأمهات الحاضنات، ويظل همها

(١) المصدر السابق، ص ٨٢

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥

(٣) أحمد خليل جمعة، نساء الأندلس، اليمامة، دمشق – بيروت، ٢٠٠١، ص ١٣

(٤) نبيلة العاجي مسعودي: العادات والتقاليد في الأندلس (ص ٧هـ – ٩هـ/ ١٣م –١٥م)، رسالة ماجستير، ٢٠١٨ / ٢٠١٩، ١٩

محصورًا بالاهتمام بزوجها، أما بالنسبة للمرأة العامية ودورها الاجتماعي في علاقتها بزوجها، كانت تقوم على أساس التعاون والتعاضد لتأمين الحاجات المادية اليومية، إلى جانب تربية أطفاله، وتدبير شؤون منزلها، بل وحتى في خارجه، كما كانت المرأة تساعد زوجها، فتخص يومها في غزل الصوف والحياكة داخل البيت(١).

تحتل المرأة العامية في رواية ثلاثية غرناطة الدور الاجتماعي الأكثر أهمية مقارنة بالمرأة الأرستقراطية، فلم تكد الروائية تذكر مثالًا للمرأة الأرستقراطية إلا في موضع واحد في الرواية (الدونيا بلانكا) في قصر (الدون بدور) فكانت هذه المرأة غير مضطرة بشكل عام للقيام بأي عمل داخل البيت أو خارجه، فكانت تخدمها (فضة) العبدة السوداء، وكانت **مريمة** تسوي لها الكعك كل أسبوع، فتقول: "تحدثت إليهما صاحبة البيت وهما واقفتان، أفهمتها أنها تقيم حفلًا في دارها، وتريد أن تضيف لقائمة طعامها صنوفًا من الأكل العربي حددتها، طلبت من **مريمة** إعدادها، وكانت "الدونيا بلانكا" تشرع المطلوب، وتتكلم في التفاصيل ... وشكرتها قائلة إنها لا تحسن تسوي سوى صنع الكعك، إذ لم يكن من المناسب أن تصارحها بأنها وهي في هذا العمر لن تخدم في دور النبلاء..."(٢)

نجد أن المرأة العامية تتمتع بالدور الأكبر في الرواية مثل (أم جعفر – أم حسن – سليمة– **مريمة**– فضة– بعض النساء لم تذكر أسماءهن ...) .

فكانت النساء في المناسبات الاجتماعية يشتركن لعمل ولائم العرس بأنفسهن بخلاف "الدونيا بلانكا" الأرستقراطية التي كانت تعتمد على **مريمة** وفضة في أعمالها المنزلية، تقول الكاتبة: "وكانت أم جعفر وأم حسن وامرأة ثالثة من القريبات قد أنهمكن العمل من الفجر في نخل الطحين وعجنه وتخميره وتقريصه، ثم قلبه في ثلاث قلايات نحاسية لم ترفع كانون النار .." (٣)

كان لابد من هذا العرض السريع لأحوال المرأة الغرناطية لتدرك كيف كان دورها داخل الأسرة. أما تربية الأولاد فكان دور المرأة فيه محدودًا، وقلما تتعدى مهمة توفير الغذاء والراحة الجسدية للولد، ذلك أن التوجيه الأخلاقي كان يُستمد من الأب وأدائه، فشخصية المرأة كانت بصورة عامة تذوب في شخصية الرجل(٤).

(١) المصدر السابق: ص٩٧.

(٢) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة، ص ٣٠٣، ٣٠٤

(٣) المصدر السابق، ص ٨٠-٨١

(٤) يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٣، ص ١٠٤

دور المرأة في المجتمع:

ساهمت المرأة الأندلسية إسهامًا فعالًا في العمل الخيري، وارتبط ذكر عدد لا بأس به من النساء الأندلسيات بالعمل الخيري مثل الوقف الخيري، ونشر الدعوة الإسلامية، وبناء المساجد، ونشر التعليم، ومساعدة الفقراء والأيتام، وقد نتج عن ذلك أن نبغ في الأندلس عدد كبير من النساء المهتمات بالعمل الخيري، وكان لهن أثر واضح في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الأندلس(١).

تعد **مريمة** نموذجًا للمرأة الأندلسية الفطنة القادرة على حل المشكلات الاجتماعية التي يتعرض لها الجيران ونساء الحي من قبل الحكم القشتالي، فقد اشتهرت مريمة بين الجيران ونساء الحي بحسن التصرف السريع، ونصرة الضعيف على القوي بالدعاء وسرعة البديهة فتقول االكاتبة: "وكان آخر ما تناقلته النساء هو واقعة ذهابها إلى معلم المدرسة التبشيرية؛ لتقنعه أن أبناء العرب يولدون هكذا ... وكانت **مريمة** قد قامت بتلك الزيارة بعد أن جاءتها إحدى جاراتها تبكي وتطلب النصح والمشورة؛ لأن ابنها البالغ من العمر ست سنوات كان يلعب في فناء المدرسة حين زلت قدمه وسقط فانكشفت عورته. وكان المعلم يقف بالقرب منه، فلما رأى ما رأى استشاط غضبًا، وأقسم أن يبلغ المسئولين في ديوان التحقيق لكي يؤاخذوا أهل الولد على خرقهم القوانين... (٢)

فاكتشف المعلم أن الطفل يختلف عن الأطفال القشتاليين، أي انه أُجري له عملية (الختان)، وهذه العملية خرق للقوانين القشتالية، فذهبت **مريمة**، وأخبرت المعلم أن الأطفال العرب يولدون بدون (تلك الزائدة)، وأنها طبيعة في أولاد العرب دون الأطفال القشتاليين، ولو أنه اطلع على بقية أطفال العرب لوجدهم بدون ما يسمى بتلك الزائدة "وهذه سمة تميزهم دون غيرهم، فاستطاعت **مريمة** بذكائها إقناع المعلم، فتقول له: "صحيح... كنا من زمان نختن البنات، وكان هذا خطأ وتبنا عنه... أما الأولاد وكيف نختنهم ؟!(٣)

كما أن "سليمة تعد نموذجًا للمرأة الأندلسية المخلصة لمجتمعها التي ضحت بنفسها من أجل علاج ومداواة المرضى بعكوفها على الكتب، ودراستها دراسة متأنية؛ لصنع دواءً من بذور وأعشاب ومحاليل لعلاج المرضى، فقد اتهمتها المحكمة القشتالية

(١) أنور محمود زناتي: أوقاف المرأة في الأندلس ودورها الحضاري خلال العصرين الأموي وملوك الطوائف (١٣٨ –٤٧٩ م) (٩٧٨ – ١٠٨٦م) مجلة الدراسات العربية، ص ٢٥٠٧
(٢) رضوى عاشور – ثلاثية غرناطة (مصدر سابق)، ص ١٦١ .
(٣) المصدر السابق، ص١٦١

بممارسة السحر الأسود، ولكنها في حقيقة الأمر كانت تسخِّر العلم من أجل علاج المرضى، فيقول لها القاضي:

– هل تمارسين السحر؟

– لا أمارسه.

– ما تفسيرك للمضبوطات التي كانت في بيتك؟

– إنها بذور وأعشاب ومحاليل أصنع منها دواءً لعلاج المرضى.

– ومن علمك ذلك؟

– تعلمته وحدي.

– وحدك أم من الكتب؟[١]

وحاولت سليمة مرارًا وتكرارًا أن تدافع عن نفسها أمام المحكمة بأنها كانت تداوي المرضى، ولكن محاولاتها كانت بلا جدوى، فحكم عليها القاضي بأنها كافرة لا توبة لها، وكان عقابها الموت حرقًا، فكانت وقود كتبها، يقول القاضي: "أعلن حكمي، وليس نصب عيني سوى الرب وشرف العقيدة وجب حكمنا عليك وأنت واقعة أمامنا هنا في ميدان باب الرملة أنك كافرة لا توبة لها، عقابها الموت حرقًا..." [٢]

وهكذا كانت نهاية سليمة نهاية مأساوية شهيدة المجتمع الغرناطي، كانت تخفف آلامهم وأوجاعهم.

العادات الاجتماعية في ثلاثية غرناطة:

النظافة العامة:

اهتم المجتمع الأندلسي بالنظافة العامة التي أكد الإسلام عليها ووصى بها كالطهارة، والصحة العامة، كما جاء بالنص: "وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما تتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوت يومه، فيطويه صائمًا، ويبتاع صابونًا يغتسل به ثيابه، ولا يظهر فيها على حالة تنبو العين عنها.[٣]

ومن مظاهر النظافة العامة في المجتمع الغرناطي في ثلاثية غرناطة انتشار الحمامات التي كان يذهب إليها العامة للاستحمام، والاعتناء بأنفسهم، فكان أبو منصور صاحب أشهر حمامات غرناطة للرجال، وحورب من قبل القشتاليين، وتم إغلاقه عدة

(١) المصدر السابق، ص١٦٢

(٢) المصدر السابق، ص١٦٢

(٣) أريج كريم حمد هاتف، المرأة الأندلسية العادات والتقاليد والتحدي والتغيير، مجلة كلية التربية للبنات جامعة بغداد، (م)٣٩ عدد (٣)

مرات، وبالرغم من ذلك كان يزاول عمله خفية بعيدًا عن أنظار القشتاليين، أما بالنسبة للنساء، فكان الحمام من أهم طقوس العرس قبل زواجها، تقول الكاتبة: "وقبل العرس بيومين تحركت ثلاث عربات تجرها البغال من بيت أبي جعفر قاصدة حمام الهنا حاملة سليمة وأمها، وجدتها، ونسوة الحي، وصغارهن، وصبايا تقاربن سليمة العمر، وبجوار النسوة صنفت السلال، والمناديل المصرورة على المناشف النظيفة، والغيارات، وأكياس التفريك، واللوف، والطاسات المكية، والصابون، وأوانٍ، وقوارير، أودعت فيها النساء حاجتهن من الحناء والمسك وزيت اللوز وزيت الزيتون"[١]

فتجد في عصرنا الحالي انتشار هذه الحمامات الأندلسية على الطراز الحديث، فما هي إلا إعادة تشكيل الثقافة في نوعها الحديث المعاصر، فالحمامات المنتشرة في الفنادق والأحياء الراقية ثقافة أندلسية متوارثة، بل وانتشرت في البلاد الغربية التي كانت تهاجمها يومًا ما.

الحلى والزينة:

وكان للمرأة المسلمة ميل نحو التزيين، وذوق رفيع في عملية اختيار العمود والأساور والخواتم، وأن النساء كن يبالغن في انتقاء اللباس الموشى بخيوط الذهب، والتزيين بالقلائد والدماج والخلاخل والأقراط، وهذه كانت من الذهب الخالص لدى الطبقة الخاصة، ومن الفضة لدى العامة، ولا شك في أن الطيب والمراهم والعطور وسائر أدوات التبرج كانت أولى اهتمامات المرأة الأندلسية، أيًا كان وضعها الاجتماعي، وحالتها المادية، والمعروف أن العطور كانت تستخرج من الليمون والأزهار والحشائش، كما استعملن الملح والصابون لتنظيف الأسنان[٢].

فكانت النساء الأندلسيات يصنعن بأنفسهن الغسول والعطور في المنزل دون اللجوء لشرائها، وهذه سمة تميز الأندلسيات عن غيرهن، فكانت أم جعفر، وأم حسن ونساء المنزل يصحبن تلك الأشياء في المنزل، ولا يفركون به أيديهن بعد الأكل لأنه كان أن ينفد، فوصف أم حسن ل**مريمة** طريقة عمل الغسول قائلة: "تخلطين ثمار النبق بالزعتر الجاف وأوراق الورد وأوراق الليمون الجافة، وتضيفين لها بعض مسحوق خشب الصندل، وقدرًا من مسحوق جوزة الطيب، هذا هو كل المطلوب"[٣]

(١) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة (مصدر سابق) ص٨١

(٢) يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية)، مرجع سابق، ١١٠

(٣) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة (مصدر سابق) ص١١٥.

ومع ازدهار صناعة الحلي، ازدهرت أيضًا صناعة العلب الصاجية المطعمة والمرصعة لوضع الحلى بداخلها(١)، فكان عليٌّ صانعًا صندوقًا لـ"كوثر" تلك الفتاة التي شغف حبها قلبه، وكان يريد الزواج منها، ولكنها تزوجت غيره، فقد صنع لها صندوقًا تصفه لنا الكاتبة قائلة: "أمسك بصندوق كوثر، تأمله فبدا له من صنع شخص آخر يفوته موهبة وعمارة، كانت العصافير المشطوفة فيه تسري في المادة المصمتة، لأنها وهي في الخشب تطير، لا عاج، ولا صدف، ولا ألوان، فقط العصافير واسمها بحروف كوفية تشكلها الفراغات في رقائق الفضة .. لامس جناحي العصفور والفضة، واسم كوثر صندوق يشاغل العين بالصنعة الماهرة أم الروح في مرآته المصورة(٢).

الملبس:

شكل اللباس أحد أهم المظاهر التي تميز الحياة الاجتماعية والثقافية في الأندلس، فهو يحبس رؤية الجماعة لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية، وتختلف الألبسة من طبقة إلى أخرى(٣).

عرفت الأندلس نوعيات متعددة من الملابس بأشكال وأنسجة مختلفة، منها ما هو مصنوع من الحرير، ومنها ما هو مصنوع من الكتان أو القطن وغيره، وهذا يشير إلى عادة تأصلت في المجتمع الأندلسي الإسلامي وهي الترف في الملبس(٤).

تتميز المرأة الأندلسية على مختلف العصور الأدبية بأنها أكثر النساء تأنقًا وتميزًا من حيث الاعتناء بمظهرها، فهي صاحبة الذوق الرفيع في عملية اختيار ملابسها، وخصوصًا المرأة الغرناطية في ثلاثية غرناطة، بالرغم من الظروف الاقتصادية المتدنية في تلك الفترة نتيجة الاحتلال القشتالي، ولكنها بالرغم من ذلك كانت صاحبة ذوق رفيع في اختيار ملابسها، والاعتناء بنفسها.

فتمثلت ملابس النساء فيما يلي ...

الخمار: وقد تسمى العمامة أيضًا خمارًا لأن الرجل يغطي بها رأسه، وفي الأندلس أطلق الخمار على شقاق الحرير فقط، وهم أسمائه أيضًا: النصيف، القناع(٥).

(١) راوية عبد الحميد شافع: المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي الأندلسي حتى سقوط قرطبة، عين لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨٩

(٢) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة (مصدر سابق) ٥٠٣-٥٠٤.

(٣) مليكة عدالة: عامة الأندلس في العصر الموحدي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة، ٢٠١٧، ٢٠١٨، ص ١٠٧ – ١٠٨

(٤) نادر فرج زيادة: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي (٩٢ هـ / ٧١٢ م – ٥٦٦٨- ١٢٦٩م) استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير ٢٠١٠، ص ١١٣

(٥) نجاة هاشمي: عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي خلال عهد الدولة الأموية ١٣٨ – ٤٢٢ هـ / ٧٥٦ – ١٠٣١م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، ٢٠١٥ /٢٠١٦، ص ٧٢

كانت صناعة الحرير من الصناعات الأكثر شهرة على الإطلاق في الأندلس، وخاصة في مدينة مالقة؛ فكان والد سعد يعمل في صناعة الحرير، ولقبت عائلة سعد بلقب الحريري لصناعته، فكان أبوه يُدعى محمد عبد العزيز الحريري.

فكانت ملابس النساء في تلك الحقبة تصنع من الحرير، يقول سعد لزوجته سليمة: "كان أبي ينسج لها قطعة من الحرير كل عام، فتفصلها ثوبًا ترتديه في ليلة النصف من شعبان، وأول رمضان، وليلة القدر، والعيدين، وعندما تُدعى لعرس من الأعراس، أتذكرها في ثوبها الحريري الأزرق وفي ثوب آخر كحلي به نقاش بيضاء" (١)

كانت نساء غرناطة بالرغم من التعميد والتنصير الإجباري يرتدين الملابس الإسلامية في الخفاء على قدر الإمكان، فعندما جاءت سليمة لـ**مريمة** في حلمها بعد وفاتها كانت ترتدي ملفًا صوفيًا فتقول الكاتبة: "يومها جاءتها سليمة في الحلم – كانت تقف على الدرج الحجري المؤدي إلى السطح، تلتف بملف أبيض، ويحدد زرقة عينيها كحل أسود ... (٢)

وقد أصدر الحكام القشتاليون مرسومًا يحرم على نساء غرناطة ارتداء ملابسهن الإسلامية، بل عليهن كشف وجوههن فينص المرسوم على ما يلي: "كيف ينص المرسوم على إن نساء غرناطة أن يكشفن وجوههن؟ نساء المدينة سافرات منذ أجيال، حتى جدتي لم تغط وجهها، ونساء القرى محجبات، فأي أذى يلحقه حجابهن بالملك ؟! الثوب الحرير... يبلى في عام واحد، والثوب الصوف يدوم عامين وثلاثة وأحيانًا أربعة، ولي ملف صوف أستخدمه من عشر سنين، فكيف لا يسمح لنا المرسوم إلا بعام واحد لاستخدام أثوابنا الحريرية، وعامين للأثواب الصوفية ؟!(٣)

السراويل: لبست نساء العامة السراويل.(٤)

الإزار: ثوب فضفاض وطويل ترتديه المرأة الأندلسية فوق ثيابها الداخلية(٥). ويوجد شيء آخر يشبه الإزار وهو الملحفة، وهو رداء كبير، تتغطي به النساء عند خروجهن(٦).

(١) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة، ص ٩٢
(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٨
(٣) المصدر السابق، ص٣٣١، ٣٣٢
(٤) هجيرة تومي: اللباس في المجتمع الأندلسي، مذكرة لنيل الماجستير، ٢٠٢٥ /٢٠١٦. ص ٥١
(٥) المرجع السابق، ص٥٢
(٦) راوية عبد الحميد شافع: المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة (مرجع سابق)، ص٨٢

كان الإزار من اللباس الشعبي لدى النساء الغرناطيات، وكانت ترتديه العروس في حمام العرس، تقول الكاتبة: "وبعد أن كيست الجارة لسليمة جسدها، وصبنت لها شعرها وجسدها، وسكبت عليها الماء الساخن قالت لها قومي لأرى، فقامت سحبت المرأة الإزار من حول خصرها فوجدت سليمة نفسها تقف بين النساء عارية تمامًا كما ولدتها أمها فداهمها الحياء ... (١)

تصف لنا الكاتبة الصندوق الخشبي، الذي يعد من أهم مستلزمات العروس، فهو يعد لنا تراثًا شعبيًا مهمًا للباس المرأة الأندلسية، فتصف لنا صندوق **مريمة**، وما أضاف إليه بعد أن طلبها حسن وقرأ الفاتحة فتقول: ".... كان الصندوق كبيرًا يمكن **مريمة** من سنوات قليلة مضيت أن تجلس فيه، تلح على أمها فلا تقبل إلا فيما ندر، تقفز **مريمة** داخله، وتجلس متربعة فيه، يشاركها قارورة لازوردية، مملوءة بماء زمزم ... ومنديل مطرز، وجلالة من المخمل الكحلي المقصب، وقبضات تداخل في خشبة البني مربعات ومثلثات رقيقة من الصدف اللامع، ومكحلتان إحداهما صغيرة من الذهب الخالص على شكل طاووس دقيق، والثانية من الفضة لها مردود مستدير من عضون متفرعة وحُق من العاج، وحجر غريب وردي اللون مائل إلى دكنة ... بعد أن طلبها حسن وقرأ الفاتحة مع أبيها أضيف لصندوق **مريمة** ثلاثة أثواب جديدة، وسباطان جلديان، ومنديل مرقوم، وخمار، وقميصان، وأربعة سراويل، وزوجان من الجوارب الثقيلة، وملف صوفي(٢).

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال في النظافة، يبالغون في العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم، ويُكثرون من الاستحمام، وقد كانت هذه العادات فيما بعد حينها أكره المسلون على التنصير، ومن الشبه التي تثيرها ضدهم محاكم التحقيق؛ للتدليل على تشبتهم بالإسلام، وارتدادهم عن النصرانية(٣).

(١) رضوى عاشور: سقوط غرناطة (مصدر سابق)، ص ٨٢

(٢) المصدر سابق، ص ٩٩

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الهيئة العامة المصرية الكتاب، ج ٧، ص ٤٥٠

الفصل الثاني:- دور المرأة الاقتصادي في ثلاثية غرناطة

ويشتمل على

- **المجال الاقتصادي:**

أ- الزراعة.

ب- الخبز.

- **البيع والشراء.**

أ- الجواري.

ب- المومسات.

١. المجال الاقتصادي:

لا مراء في أن التماس الرزق وتدبير المعيشة مما ينشغل به تفكير الناس عادة، وتنصرف إليه همهم، ولا مراء في أن اتصال حاجيات الناس، مدى الحياة، يستلزم اتصال السعي في مسالك الرزق وسبله، من هنا كانت دراسة الحياة الاقتصادية في مجتمع ما مفيدة في سد كثير من الثغرات التي تلفت النظر فما يكتب عنه من صفحات تاريخ السياسي، والاجتماعي[١]. والواقع إن المرأة الأندلسية أسهمت بصورة واضحة في الحياة الاقتصادية[٢] في غرناطة حيث الزراعة، والتجارة، والصناعة، وبيئة الأندلس تتميز بخصوبتها، واشتهرت بمحاصيل زراعية شتى من الزيتون والتين والكروم ... إلخ.

أولًا: الزراعة: فقد استغل أهلها خصوبة تربتهم في زراعة نباتات مختلفة مما يحتاجه السكان، فكان بما اشتهرت به الأندلس زراعة كثير من المحاصيل المهمة مثل القمح والشعير والذرة، والفواكه، والنخل، والزيتون، والقطن، والكتان، وبناء على ذلك يمكن القول بأن هذه المحاصيل تنطوي على نوعين من المحاصيل: محاصيل أساسية تُستخدم لسد حاجة السكان مثل القمح والشعير والذرة والزيتون، أو محاصيل تجارية تستخدم في النواحي التجارية لجلب المال كالقطن والكتان[٣].

(١) حسن الوراكلي: لمحات من حياة غرناطة النصرية في القرن الثامن الهجري من خلال مسالك ابن لب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع١، ١٩٨٦، ص ٣٠-٣١.

(٢) رواية شافع: المرأة في المجتمع الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرطبة (مرجع سابق)، ص ١٧٢

(٣) نادر فرج زيادة: الترف في المجتمع الإسلامي (مرجع سابق)، ص ٦٠

ازدهرت الزراعة في مملكة غرناطة، وساعد على هذا الازدهار طبيعة الأرض وما حوته الأنهار والوديان والسهول الخصبة، والاهتمام بقنوات الري ... وأهم المحاصيل الزراعية: الكروم الذي يعصرونه في عيد اشتهرت به مملكة غرناطة، وكذلك الزيتون والبرتقال، والحبوب على أنواعها المختلفة(١).

وكان المجتمع الغرناطي يعيش في رخاء وسعة، تكثر لديه الأقوات في الشتاء والصيف، ولا سيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والجوز واللوز وغيرها، ويدخرها الناس يابسة على مر الفصول، ومتى حل الصيف هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أعني الضواحي، للتمتع بجمال البسائط النصرة(٢).

وقد خص الله الأندلس بالتين والزيتون، وهما من الفاكهة التي خصها الله بالذكر في القرآن الكريم، فهذا دليل قاطع أن الأندلس جنة الله في أرضه.

يُعد الزيتون من المحاصيل الأساسية في الأندلس، إذ احتلت زراعته مساحات واسعة من الأراضي خاصة إقليم الشرق، الذي اشتمل على مائتي قرية، قد التفت بأشجار الزيتون ... وبهذه المادة الخام وجدت صناعة الزيوت، والتي كانت من الصناعات الضرورية في حياة الإنسان لاستخداماتها العديدة في الأطعمة والإضاءات وغيرها، ولاقت اهتمامًا كبيرًا من العوام الذين وجدوا في صناعة الزيت حرفة لهم(٣)، والزيتون استخدم في صناعة المواد الغذائية، ومنها عصير الزيتون(٤).

كان الزيتون حيلة **مريمة** لمعرفة أخبار سليمة عندما قُبض عليها، فقد تعرفت **مريمة** على امرأة قشتالية زوجها يعمل في ديوان التحقيق، فكان الزيتون – السلعة التي عليه إقبال على شرائها، فكان المرأة أثناء حديثها عن سليمة مع **مريمة** سألتها عن رأيها في الزيتون، فقالت لها المرأة القشتالية ".... ما رأيك في هذا الزيتون ... هل تشتري منه؟

لا تشتري، سآتيك بأحسن منه، فلزوجي عروق زيتون لا أشهى من ثمارها، حين تأتيني بالأخبار آتيك بحملين من الزيتون ... أتيت لك بأخبار قد تكافئيني عليها بحمل شجرة كاملة من الزيتون... (٥)

(١) خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد زنون طه، ناطق صالح مطلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ص ٤٧٤

(٢) محمد عبد الله عنان: دول الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مرجع سابق، ص٤٥٠

(٣) مليكة عدالة: عامة الأندلس في العصر الموحدي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، ٢٠١٨/٢٠١٧، ص١٣٩

(٤) جميلة بختان الحربي: الأيدي العاملة في غرناطة بني الأحمر ودورهم في الارتقاء بالحرف والصناعات، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع ٤٣، ص ٣٣١

(٥) رضوى عاشور: سقوط غرناطة، مصدر سابق، ص ٢٤٠.

وهناك بعض العادات والتقاليد المرتبطة بموسم الزيتون في الصيف قبل الخريف في الجعفرية، فتقول الكاتبة: "ثم يأتي موسم الزيتون، يخرج الصغار والكبار، الرجال والنساء يقضون نهارهم، منذ شروق الشمس حتى المغيب، هناك عند الشجر المثقل بثمره الحميم يحركه الرجال بالعصي، فتتساقط الحبات على الأرض، وعلى الرؤوس ينزل الله على خلقه من السماء ماءً، وينزل عليهم من تمر كدهم وعرقهم الزيتون، بسم الله ما شاء الله يجمعونه في السلال والأكياس، ينقلونه إلى المعصرة، تدور فتمتلئ الجرار، للدار منها نصيب، ولسيد الأرض نصيب يأخذه بلا حق فلا بارك الله فيه، ثم تحمل البغال الجرار إلى السوق فيبيعون بحمد الله ويقبضون"(١).

فموسم الزيتون له مكانة عظمة لدى الحرفيين، يجتمع له الكبار والصغار لجمع المحصول، وتقسيم الأنصبة عليهم، كما أنه يسهم في حل المشكلات الاجتماعية، مثل الزواج، وتوفير المهر، والعرس، وشراء الكسوة للعيال، وما ينقص أم العيال ... إلخ تقول الكاتبة: "... إنه موسم الزيتون، من أراد أن يزوج ابنه يطلب له الصبية بلا حرج، وقد أنعم الله وتفضل بما يفي بالمهر والعرس الكريم، يشترون الكسوة للعيال، وما ينقص أم العيال، والمسعد من الرجال تكرمه امرأته، وتكرم الجيران بقدر من الزيت صنع يديها، تدق حبات الزيتون بالحجر، وتنقله إلى وعاء، تسكب الماء المغلي عليه، وحين يبرد الماء تدعكه دعكًا كالعجين، تنقيه من البذور وتهرسه بيديها، ثم تحضن بالكفين الزيت سر على وجه الماء، لاذق يا أبا العيال، تفضلوا يا جيران، تغني النساء، وتنطلق أصوات الرجال بالمواويل ثم يمسكون عصيهم ويرقصون، تراقبهم النساء من وراء المشربيات"(٢).

فكان موسم الزيتون من أكثر المواسم احتفالًا لما يتمتع من قيمة اقتصادية عالية لها الفضل في حل المشاكلات الاجتماعية جمة في تلك المدة الزمنية.

ثانيًا: صناعة الخبز:

كانت لحرفة الخباز أهمية خاصة في حياة المجتمع، كون الخبر الغذاء الرئيس للسكان، إذ تقتصر صناعته على عجنه، ثم إنضاجه في المنزل أو الفرن، وقد انتشرت الأفران في سائر المدن الأندلسية، وذلك لسد حاجيات السوق من الخبز، وكان الحصول على هذه المادة، إما في المنزل أين كانت المرأة هي التي تتولى مهمة عجن وتحضير

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٣٨.

الخبز وطهيه في الطاجن فوق النار، أو في الأفران، والتي كانت منتشرة في عديد من المدن[١]

كانت المرأة الأندلسية تقوم بنخل الطحين وتخميره وتقريصه داخل منزلها بنفسها، ومساعدة بعض النسوة، إحدى نساء الحي داخل دارها، فكانت تصنعه بنفسها ولا تشتريه من الأسواق، فتصف لنا الكاتبة عادات المرأة الأندلسية في إعداد مراسم عرس سليمة قائلة:

"وكانت أم جعفر وأم حسن وامرأة ثالثة من القريبات، قد انهمكن منذ الفجر في نخل الطحين وعجبه وتخميره وتقريصه، ثم قليه في ثلاث قلايات نحاسية، لم تُرفع عن كانون النار منذ مطلع النهار حتى العصر، يغلى الزيت فيها لتسوي فطائر، فترفع منها، وتصفى في حين تستقر في زيتها المقدوح فطائر غيرها[٢].

كما أن مملكة قشتالة كانت المسئولة عن توزيع حصص القمح على الأهالي، وخاصة في مالقة، فكانت نساء مالقة يخبزن في بيوتهن، تقول الكاتبة:

" بعد أيام عندما أعلنوا أن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا بتوزيع حصص من القمح على الأهالي، كان جدي قد مات جوعًا أو قهرًا، وكانت نفيسة الصغيرة قد قتلها الجوع أو ربما الخوف، بكت أمي وكررت: «ما نفع ذلك الآن؟!» ولكنها ذهبت وعادت بحصتنا من الطحين، وعجنته وخبزته، وقالت لي: "كل" فأكلت،[٣]

اتخذت **مريمة** من الخبز حرفة لتدني الأوضاع الاقتصادية في غرناطة.

٢. البيع والشراء:

استمرت **مريمة** تخبز الكعك كل صباح، وتبيعه لتنفق على زوجها حسن وصديقه نعيم، الذي عاد إلى البيازين بتجربة مريرة، فقد خلالها زوجته وأولاده، وكذا كثيرًا من عقله، وظلت تغالب الحياة ولم تستسلم، ولم يتسلل اليأس إلى قلبها، توفي زوجها حسن، ولم يكمل نعيم من بعده شهرين، ومات هو الآخر، ولم يبق من بيت أبي جعفر إلا **مريمة** وعلي[٤].

(١) مليكة عدالة: عامة الأندلس في العصر الموحدي (مرجع سابق)، ص ١٤١

(٢) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة، (مصدر سابق)، ص ٨٠

(٣) المصدر السابق، ص ٩٣

(٤) مؤمنة حمزة عبد الرحمن: مزايا الأنا والآخر في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور رؤية فنية، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية (م) ٢، (ع) ٢٥، ص ٥٦٧.

تقول الكاتبة عن **مريمة**:

"غربلت الطحين وعجنت وخبزت، ولما استوى الكعك صفته في السلة، وحملته إلى السوق كعادتها كل صباح، تربعت في ركنها المعتاد، ونادت على بضاعتها فأتى الشارون وابتاعوا وذهبوا، ثم حملت سلتها وعادت إلى البيت"(١).

كانت **مريمة** حريصة كل الحرص على إعداد الكعك كل يوم لتبتاعه في السوق مهما كانت الظروف قاسية (الظروف الاجتماعية)؛ لأن قسوة الحياة الاقتصادية كانت أشد قسوة عليها، بالرغم من أن حفيدها انتابه نوبة السعال، فلم تمكث في دارها؛ بل ذهبت إلى السوق بصحبة حفيدها الصغير المريض؛ لتبيع كعكها الذي أعدته منذ مطلع الفجر، تقول الكاتبة:

"قامت بحرص، أحس بحركتها، قالت: نم يا علي، لم يشقشق الفجر بعد، لم تفلح في إبقائه وحده في الفراش، فلفته بحرام صوفي يحميهم لفحة الهواء، وتبعها إلى المطبخ، قرفص بالقرب منها، رآها وهي تكيل الطحين، ثم تنخله، فتتراكم ذراته في القصعة ناعمة بيضاء، حملت جرة الزيت، مالت بجذعها قليلًا، فانسكب زيت الزيتون الأخضر سائلًا ذا قوام شفاف، يستقر في أبيض الطحين، غفا ثم أفاق، كانت **مريمة** متربعة تصف الكعك الذي عجنته وكورته على غربالها الكبير، قامت وفتحت باب التنور، ونقلت كعكها إلى النار الموقدة فيه وأغلقته ... ما إن وصلا إلى الساحة وافترشا جانبًا منها، حتى بدأ يطالبها بالحكاية، ولكنها كانت منهمكة تنادي على كعكها، فيتوقف الشارون، فتعطيهم وتأخذ الدراهم التي يدفعونها"(٢).

بالرغم من الحالة الاقتصادية المتدنية التي كانت تعيشها بلاد الأندلس، وبدورها أثرت على **مريمة** وعائلتها، رفضت **مريمة** إعداد وليمة للسيدة الثرية القشتالية الدونيا بلانكا، فهذه المرأة القشتالية استطابت كعك **مريمة**، وطلبت منها إعداد وليمة تضم أكلات وصنوفًا عربيةً، ولكنها رفضت نوعًا من أنواع السخط على القشتاليين، واختلقت الأعزار لجارتها فضة فقالت لها:

"غادرتكم مسرورة بثقة الدونيا بلانكا وتكليفها إياي بإعداد الطعام لوليمتها، وكانت منهمكة في التفكير فيما يلزمني لصنع الأصناف المطلوبة فزلت قدمي، قلت : آه! وسقطت على ذراعي اليمنى. وأي ألم يا فضة، كأنها النار صبت في ذراعي صبًا. بقيت

(١) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة (مصدر سابق)، ص ٢٦٩

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٠ – ٢٨١

مكومة على الأرض حتى استجمعت قوتي، واستعنت بيدي اليسري، وتحاملت على نفسي وقمت واقفة، وواصلت طريقي ... قالت **مريمة** لنفسها إن فضة طيبة القلب وعطوفة، ولو كان الأمر يخصها لما كذبت عليها، اختلاف الوقائع على من يتوجس المرء منهم، ويخشى أذاهم حلال وضروري(١).

تعرضت بعض النساء في تلك الحقبة إلى ظروف اقتصادية وليدة ظروف اجتماعية، فكانت كوثر فتاة من الجعفرية هربت إلى بلنسية لأنهم قتلوا أختها، وعندما اعترفت بأن القاتل هو أبوها توعدوا بقتلها، فهربت إلى بالنسية، وأخبرتها الظروف إلى تذهب إلى السوق الكبير في مدينة بالنسية لتبيع السمك، تقول الكاتبة:

" وجدها تبيع السمك في سوق المدينة الكبيرة، لم تتعرف عليه، فعرفها قالت:

– ما الذي تريده مني؟

– أن تعودي إلى الجعفرية

– قتلوا أختي، وإن أعد يقتلوني

– يجيرك عمر الشاطبي حتى يصلح بينك وبين أهلك

–قتلوا أختي، لا أريد العودة إليهم(٢).

تفاقمت ظروف كوثر الاجتماعية التي تتمثل في هجرها لأهلها؛ مما أدى إلى زواجها من صياد نصراني اسمه تسانشولوليس، بالرغم من أنها مسلمة، ولكنها أمام الجمع القشتالي نصرانية، فالعادات والتقاليد الإسلامية تحرّم زواج مسلمة من سيد نصراني، ولكن الفقر وظروفها الاقتصادية المتدنية أجبرتها على ذلك، فتقول الكاتبة:

"(تغيرت) تمتم **علي** وهو يتأمل كوثر، كانت تقف على بعد أمتار وراء بسطة السمك المعروض للبيع. لم يعد وجهها شاحبًا نحيلًا. زاد وزنها وتورد وجهها مع امتلاء الجسم لم تعد طفلة كبرى. ترى هل تفرح لرؤيته؟ هل تعجبها الهدية؟ ..... ظل واقفًا يراقبها وهي تتحدث مع الشارين، تزن لهم السمك وتقبض ما يدفعونه، يبتسم، تبدو منشرحة مبسوطة ... هل أنت بخير يا كوثر؟ الحمد لله بخير. تزوجت وبعد أربعة أشهر يأتينا المولود، قالتها ببساطة، كأنها لا تقول شيئًا، انعقد لسانه، ولكنها واصلت:

- زوجي رجل طيب يحسن معاملتي، إنه صياد، وساعدني على العمل هنا، ثم طلب مني الزواج.

(١) المصدر السابق: ص٣٠٧-٣٠٨.

(٢) المصدر السابق: ص٤٥.

- ما اسمه؟
- سانشولويوس
- نصراني؟
- ألم نعد نحن أيضًا نصاري؟! (١)

أ- الجواري:

الإماء أو الجواري نقصد بهن النساء المملوكات اللاتي يبعن بيع العبيد، وقد وُجدن بأعداد كثيرة في أعقاب الفتوحات الإسلامية، وكن يملأن قصور الحكام والخلفاء، فقد أباح الإسلام للمسلم أن يمتلك من الأعداد ما يشاء، ولم يحدد عددًا معيناً كالزواج الذي حددته الشريعة الإسلامية، بأربع زوجات فقط، وكانت الجواري من أجناس وأشكال مختلفة(٢).

كان يطلق على الجواري أسماء بيضة وجميلة، ولها معنى من معاني امتيازهن مثل: العجفاء.. وكانت هزيلة ضعيفة، غصن، وروض، وصبح، وقمر، وراح، وطروب.. إلخ(٣).

وفي عهد مملكة غرناطة (٦٣٢ – ٨٧٩ه) آخر معاقل المسلمين بالأندلس فقد أكثر سلاطين بني نصير حكام مملكة غرناطة من اتخاذ الجواري والتسري بهن(٤) .

كانت فضة في رواية "ثلاثية غرناطة" تعمل في قصر "دون بدور" فعندما ذهبت **لمريمة** لاستلام العكك، ونمت الألفة بينهما أخذت تقص حكايتها، فقالت لها:

"نحن في الأصل من بلاد السود، جاء منها جدنا الأكبر، وكان صبيًّا في العاشرة من عمره حين سرقه تجار العبيد، ونقلوه إلى غرناطة، وباعوه لملك من ملوكها، فعاش كما عاش أولاده من بعده في الحمراء يخدمون في قصورها، ولما خرج آخر ملوك المسلمين من غرناطة، قال: لا غنى لي عن جمال" وجمال هذا هو صدي، وتقول جدتي إنه سُمّي بهذا الاسم لأنه كان يفوق كل أترابه حسناً"(٥).

كما عهدنا العصر الأندلسي كان يطلق على العبيد أسماء بسيطة وجملية، فتقول فضة عن جدها إن سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان يفوق كل أترابه في الجمال والحسن والبهاء.

---

(١) المصدر السابق: ص٤٦١-٤٦٢.

(٢) راوية عبد الحميد شافع: المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي الأندلسي حتى سقوط غرناطة، مرجع سابق، ص ١٨٤

(٣) المرجع السابق: ص١٨٨

(٤) جاسم ياسين الدرويش: دور المرأة في الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتي سقوط غرناطة، ص ١٠٣

(٥) رضوى عاشور: ثلاثية غرناطة مصدر سابق، ص ٣٠٨

فقد ساءت الأوضاع الاقتصادية لفضة لأن زوجها ابن خالها هرب وتركها بأولادها، فكان استمرارها كجارية لدى "دون بدور" إرغامًا، وليس اختيارًا، فتقول:

" تزوجت ابن خالي وعشنا في أمان الله، وكان يضن علينا بالطعام أو يضربنا أو يثقل علينا بما لا نطيق من العمل الشاق، ولكن ابن خالي كان معتدًا بنفسه، يظل يكرر: "لا أريد حياة العبيد أهدئه وأقول: ولا يملك سوى هذه الحياة، قسمها الله لنا فلنعش، وليقبل بالمقدر لنا من النصيب، لم يقبل، تركني وترك ابنه وهرب، وانتظرته أعوامًا الحمد لله على أي حال "[1].

ب – المومسات:

كانت بعض النساء في تلك الحقبة يقعن أسيرات في قبضة رجال الباستو؟ فالباستو هو متعهد أمور الفاحشة والرذيلة في الخان، فكان يجبر النساء اللاتي يقعن في قبضته كفريسة لممارسة هذه الأعمال بترخيص بمقابل مادي، فكان يأخذ جزءًا من المال، والباقي يقتطعه للملك، ففي تلك المدة في ظل الحكم القشتالي كانت النساء يصبحن جواري ليس للعمل والخدمة كما عهدنا ذلك في العصور السابقة بل لممارسة الرذيلة، نجاة فتاة من سرقسطة كانت تمكث في ركن المومسات، قابلها علي عندما تمكن منه اليأس عندما علم بزواج محبوبته كوثر من نصراني، فاصطحبها إلى فراشه، وضاجعها، وأعطاها أجرها لتنصرف. ولكنها عادت إليه مرة أخرى لأنه انخرط في البكاء، وطلبت منه البقاء، دون أجر إضافي، فعندما تطلع إليها كانت دون العشرين، وطلب منها أن يسمع حكايتها فقالت له:

"... أحببت شابًا لم يكن يقيم في القرية، ولكنه كان يتردد عليها. طلب منى الزواج ففرحت، ولكنه قال إن عمي لن يقبل لأنه غريب، وأنا أيضًا خفت من زوجة عمي، قلت له: ما العمل؟! قال: نذهب إلى المدينة ونتزوج ... هربت معه وجئنا إلى بلنسية، ونزلنا في هذا الخان ... في ليلتنا الأولى هنا في المدينة فتح أحدهم الباب علينا، وأمسك بتلابيبي، وقال: إني أمارس العمل دون ترخيص، لم أفهم تمامًا ماذا يعني، ولكن أقسمت له أن مسعود طلب مني الزواج، وأننا سنتزوج صباح اليوم التالي، تطلعت إلى مسعود لكي يؤكد كلامي، ولكنه بقي صامتًا كأنه بلا لسان "قل يا مسعود، انطق يا مسعود،

(١) المصدر السابق

أخيرًا نطق، هل تعرف يا سيدي ماذا قال؟ قال إنه لم يكن يعلم أنني أعمل دون ترخيص، وارتدى ملابسه وحمل أغراضه، وتركني وذهب هل تصدق ؟![1]

كانت نجاة تحكي لعلي قصتها وتأمل أنه ينقذها من هذا البلاء، وعرضت عليه أن يشتريها من "الدون سباستيان"، ويأخذها معه لتخدم زوجته وأولاده، فأخبرها بأنه ليس لديه زوجه، ولا أولاد وليس في مقدوره ثمنها ليشتريها، فكانت المومسات هن أولاد العرب، جواري لممارسة الرذيلة إجباريًا، وبأجر، وليس لهن حق في أنفسهن، فالجواري اللاتي يعملن في خدمة الملوك والأمراء أكثر رقيًا منهن، فتتوسل له لشرائها قائلة:

"... سمعت من صاحبتي أن هناك أولاد عرب يعز عليهن أن نمتهن هذا العمل، وأن بعضًا منهم ذات مرة جمعوا أموالًا واشتروا ثلاثة منا وأعتقوهن، من يدري لعل كلًا منهن الآن وجدت زوجًا وخلفت أطفالًا، اسأل يا سي علي قد تجد من يرغب في شرائي، سأسأل"[2]

اهتم علي بأمرها وذهب إلى "عمر الشاطبي" من الجعفرية، وأخذ مشورته في أمر المومس نجاة، فأخبره بأن عددهن ليس قليلًا، فبعضهم مملوك يشغله أسياده الملاك، وبعضهم لا يجد مصدرًا آخر للقوت، إذن تجنب المومسات يواجهن مشكلات اجتماعية تتمثل في إجبارهن على هذا العمل.

وعلى الصعيد الآخر يواجهن مشكلات اقتصادية، تتمثل في عدم إيجاد مصدر آخر للقوت، فالفقهاء اتفقوا على جمع المال لشراء بعضهن، ثم عتقهن وتوفير لهن مصدر كريم للرزق، ولكن المجتمع لم يتقبل هذه الفكرة اجتماعيًا أن يختلط نساؤهم بالمومسات بعد عتقهن، وهذه تعد مشكلة كبري، ولكن عمر الشاطبي نصحه بأن يعتقها على سبيل الصدقة لو استتابت، ويوفر لها حياة كريمة.

عندما عاد علي إلى الخان وجد نجاة في انتظاره، فدعاها للجلوس قائلًا:

- اجلسي يا نجاة.
- تلعثمت، ثم قالت: أفضل أن يكون أجري نقودًا.
- ضحك مداراة للحرج، قال: ليس العشاء أجرًا يا نجاة، بل ضيافة!
- جلست على استحياء، ثم تطلعت إليه، وقالت:

(١) المصدر السابق: ص٤٦٣، ٤٦٤

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦٥.

- لم أقل ما قلته بخلًا وتقتيرًا، ولكني أدَّخر النقود لأدفع للدون سباستيان الثمن الذي حدده لبيعي، كدت أكمل المبلغ(١).

كانت نجاة ترغب في حياة حرة كريمة بعيدًا عن هذا العمل الذي كانت تزدريه، ولقد كانت الكاتبة رضوى عاشور موفقة في اختيار اسم هذه المومس "نجاة"، فإن هذه الفتاة لأصلها الطيب كانت تسلك كل السبل لنجاتها من هذا العمل الوضيع، فكانت تبتغي لنفسها حياة حرة كريمة.

لأن الأوضاع الاقتصادية المتدنية التي كانت تعيشها الأندلس في ظل الحكم القشتالي كانت دافعًا للمرأة الأندلسية للاعتماد على نفسها اقتصاديا، وتوفير احتياجات أسرة بالعمل في شتى المجالات كما رأينا، في الزراعة والبيع والشراء، والعمل في قصور الأمراء القشتاليين.

العناصر الفنية في ثلاثية غرناطة للكاتبة رضوى عاشور:

أولًا: العنوان:

وفقًا لما ورد عن الدارسين لهذه الرواية جاء العنوان محمَّلًا رؤية فنية تاريخية؛ إذ مهّد للقارئ الموضوع العام الذي ستطرحه الكاتبة بين احداث روايتها وتقسمها إلى ثلاثة أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض لإبراز الفكرة التي تريد الكاتبة إيصالها في النهاية.

ثانيًا: المكان:

دارت أحداث هذه الرواية في الأندلس (غرناطة) تحديدًا، ويُلاحظ أنّ للمكان في هذا العمل الروائي خصوصية كبيرة؛ إذ إن (غرناطة) بطلة الرواية ما زال جرح سقوطها محفورًا في الذاكرة، وهي رمز الحضارة والمجد والعز عند العرب والمسلمين، وفي هذه المدينة تصف رضوى عاشور العديد من الأماكن لتعطي صورة كاملة عن الحياة فيها، وتغرس في نفس القارئ الألم الذي عايشته هذه المدينة وأهلها.

ثالثًا: الشخصيات:

١. الشخصيات الرئيسة:

تدور أحداث رواية ثلاثية غرناطة بين عدد من الشخصيات الرئيسة وفقًا لما ورد في دراسة تحليلية لهذه الرواية للوزيرة بلباش، وهي:

(١) المصدر السابق، ص٤٧٤.

- **أبو جعفر:** هو جد العائلة أبو جعفر الوراق، راعي العائلة التي تدور حولها الأحداث، ساهم في بناء الرواية بنسبة كبيرة رغم أن وجوده فيها لم يكن كثيرًا.
- **حسن:** هو ابن أبي جعفر، متمسك بتعليمات التنصير والذهاب إلى الكنيسة.
- **سليمة:** هي حفيدة أبي جعفر، متعلقة كثيرًا بالكتب، مما ادى إلى نفور دائم بينها وبين زوجها (سعد) واتهامها بالسحر والشعوذة، وقد حُكم عليها بالموت حرقًا.
- **نعيم:** هو شخص محب للاكتشاف، يطوف الأرض مع قسّيس يؤدي دورًا مهمًّا.
- **علي:** هو حفيد مريمة، أصرَّ على البقاء في أرضه، فبعد وفاة أمه وأبيه يعيش مع جدته التي تستقر في قرية الجعفرية، وهو الشخصية الرئيسة في الجزء الثالث من الرواية.

٢. الشخصيات الثانوية:

تدور أحداث رواية ثلاثية غرناطة بين عدد من الشخصيات الثانوية وفقًا لما ورد في دراسة تحليلية لهذه الرواية للوزير بلباش، وهي:

- **سعد:** هو زوج سليمة، ينضم إلى المجاهدين وينتهي المطاف في أحد السجون.
- **أبو منصور:** هو صاحب حمامات يحب مساعدة الناس حتى يصدر قرار بإغلاق حمامته.
- **عمر الشاطبي:** هو شيخ قرية الجعفرية وكبيرهم، لم تعتمد عليه الكاتبة بكثرة في الرواية.
- أبو عبد الله الصغير: ورد في بداية الرواية عندما أعلن استسلامه بعد أن ضاعت البلاد من يديه (شخصية حقيقية)
- **الملك فرديناند والملكة إيزابيل:** هما الملكان القشتاليان اللذان وقّعا اتفاقية تسليم غرناطة (شخصية حقيقية)
- **موسى بن أبي الغسان:** هو قائد عربي مسلم، من القادة الذين حضروا اجتماع الحمراء لبحث بنود معاهدة التسليم مع قشتالة، لكنه رفضها رفضًا قاطعًا (شخصية حقيقية)

رابعًا: الأحداث الرئيسة:

تقسم رواية ثلاثية غرناطة إلى ثلاثة أجزاء؛ الجزء الأول (غرناطة)، والجزء الثاني (مريمة)، والجزء الثالث (رحيل):

الجزء الأول تمهّد رضوى عاشور فيه للحديث الرئيس (سقوط غرناطة وما تعرّض له العرب على يد القشتاليين) وتحكي قصة عائلة أبي جعفر الوراق وأفرادها الذين ينتمون إلى أربعة أجيال متتالية، فتصف الكاتبة ما مرّ من أحداث وسيطرة للقشتاليين على العرب، وينتهي هذا الجزء بموت أب جعفر وفرار ابن أبي الغسان إلى جهة مجهولة.

أما في الجزء الثاني فتحكي قصة مريمة ابنة الشيخ إبراهيم وحبها للكتب وما يجري معها من أحداث يومية وعلاقتها بنساء الحي، كما تعرض الكاتبة دور محاكم التفتيش القشتالية في ممارسة العنف ضد النساء والأطفال.

وفي الجزء الثالث تتناول الكاتبة قصة علي حفيد مريمة ورحيله إلى قرية الجعفرية وتنقله من مكان إلى آخر، بالإضافة إلى ذكر علاقاته بالنساء، وانضمامه إلى رجال المقاومة بعيدًا عن الجواسيس.

خامسًا: العقدة والحبكة:

وفقًا لما ورد عن سعاد العنزي في تحليلها لهذه الرواية تزداد هيمنة الدولة القشتالية، وتتعرض المرأة للمزيد من القهر الدولة القشتالية، وتتعرض المرأة للمزيد من القهر والظلم في هذه الدولة التي لم تتقبل وجود امرأة متعلقة تقرأ الكتب وتعالج المرضى؛ لأنهم يحاربون العلم بصورة عامة والعلوم الإسلامية بصورة خاصة، ولا يريدون للعرب المسلمين أن يقرؤوا ويتعلموا، فتظهر عقوبات صارمة لجريمة "اقتناء الكتب"، ويتم تطبيق هذا الظلم والعنف على جميع العرب.

الحل:

تنتهي الرواية بموت كوثر حبيبة علي قتلًا على يد أخيها، وإصرار عليّ العودة إلى غرناطة وحيّيه حي البيازين، حيث صندوق جدته المدفون متحملًا مسؤولية هذا القرار.

السمات الفنية في رواية ثلاثية غرناطة:

اتسمت رواية ثلاثية غرناطة بعدد من الخصائص والسمات الفنية، منها على سبيل الذكر لا الحصر ما يأتي:

- استخدام تقنية المفارقة الدرامية، والتي تساهم في دعم بناء الرواية الدرامي التاريخي، ويتجسّد ذلك من خلال إظهار التوازن بين المتناقضات.

- استخدام أسلوب التقرير السردي، فكانت الأفعال الماضية والمضارعة موجودة بكثرة، الأمر الذي يدفع القارئ للشعور بتتابع الأحداث وتعاقبها.
- التنويع بين استخدام الحوار الداخلي والحوار الخارجي.
- استخدام لغة ذات طابع درامي قادرة على إثارة مخيلة القارئ.
- تعدد المستويات اللغوية في الرواية؛ إذ جمعت بين البساطة التي تمثلت بلغة الحديث اليومي، واللغة العميقة المنبثقة عن وعي وإدراك.

النتائـــج

١. جاء العنوان حاملًا رؤية فنية تاريخية؟ إذ مهّد للقارئ الموضوع العام الذي ستطرحه الكاتبة بين أحداث روايتها، وتقسيمها إلى ثلاثة أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض لإبراز الفكرة التي تريد إيصالها في النهاية.

٢. كشفت الدراسة أن المجتمع كان مزيجًا من أحاسيس مختلفة ومن غرناطة ومالقة، وبلنسية، تحت ظل الحكم القشتالي، وغير ذلك تجاوزت أول الأمر، ثم تفاعلت فيما بينها إلى حد الانصهار بين المجتمع الأندلسي والقشتالي الذي يتجلى في عدة مظاهر أبرزها الحياة اليومية المشتركة، فالزمن استطاع ظاهريًا أن يكون منهم خليطًا متجانسًا تذوب فيه الفوارق على تنوعها.

٣. كشفت الدراسة أيضًا أن الحرية التي حصلت عليها المرأة الأندلسية في مجتمع متعدد الطوائف والجنسيات، والديانات والمذاهب، والعادات والتقاليد، فقد استطاعت المرأة تحقيق المعادلة الصعبة التي تتمثل في الخروج إلى هذا المجتمع مع الحفاظ على عقائدها الإسلامية التي كانت تخفيها.

٤. كما تبيّن من خلال الدراسة أن امتلاك الأندلس لثروات نباتية ساعدت المرأة الأندلسية على استغلالها في حياة الاجتماعية لصنع الدواء الشافي لعديد من الأمراض، واستغلالها على الصعيد الاقتصادي لصناعة صنوف متعددة من الأطعمة لتساعدها على توفير حياة كريمة لها، وتتخطى به الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد.

٥. أوضحت الدراسة أنه كان هناك انتشار لأسواق النخاسين، حيث استطاع الرجال امتلاك عدد من الجواري، وأصبح المجتمع الأندلسي في صراع مع التقاليد والقيم الإسلامية، وما يفرضه المجتمع القشتالي من انتشار أسواق النخاسة، فكانت بعض النساء يجبرن على هذا العمل لظروف اجتماعية واقتصادية.

٦. استطاعت الكاتبة من خلال ثلاثية غرناطة إلقاء الضوء على المرأة الأندلسية ودورها البارز في الحياة الاجتماعية، حيث كانت محورًا لأحداث الثلاثية.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

١. رضوى عاشور، ثلاثية غرناطة، دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٢٢.

ثانيًا المراجع:

٢. أحمد خليل جمعة: نساء الأندلس، اليمامة، دمشق – بيروت، ٢٠٠١.

٣. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار الرشاد.

٤. خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد زنون طه، ناطق صالح مطلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١.

٥. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ هـ (٧١١ – ١٤٩٢م)، دمشق– بيروت، دار القلم، ط٢، ١٩٨١م.

٦. فاتن مرسى: المنديل المعقود، دار الشروق، ط١، ٢٠١٦.

٧. لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، المطبعه السلفية.

٨. محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، بيروت، لبنان، دار النفائس.

٩. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الهيئة العامة المصرية الكتاب.

١٠. يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية، بيروت، دار الجبل، ط١، ١٩٩٣.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

١١. خلود إبراهيم عبد الله جراد: تطور البناء الدرامي التاريخي من روايات رضوي عاشور، رسالة استكمال متطلبات الحصول على الماجستير في اللغة العربية وآدابها، ٢٠١٣–٢٠١٤.

١٢. رامز إسماعيل طه الحلبي، عوامل سقوط الأندلس (٩٢هـ –٧١٢م) (٨٩٧هـ– ١٤٩٢م) استكمالًا متطلبات الحصول على درجة الماجستير، فلسطين، ٢٠١١.

١٣. سعد عودة حسن عدوان: الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية دراسة في ضوء المناهج النقدية، رسالة ماجستير، ٢٠١٤.

١٤. سومية مسلم: شعرية الوصف في رواية "ثلاثية غرناطة لرضوي عاشور"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، ٢٠١٤ – ٢٠١٥.

١٥. مليكة عدالة: عامة الأندلس في العصر الموحدي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة، ٢٠١٧، ٢٠١٨.
١٦. نادر فرج زيادة: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي (٩٢ هـ / ٧١٢ م – ٥٦٦٨-١٢٦٩م) استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير ٢٠١٠.
١٧. نبيلة العاجي مسعودي : العادات والتقاليد في الأندلس (ص ٧هـ – ٩هـ/ ١٣م –١٥م) لنيل الماجستير، ٢٠١٨ / ٢٠١٩.
١٨. نجاة هاشمي: عادات وتقاليد المجتمع الأندلسي خلال عهد الدولة الأموية ١٣٨ – ٤٢٢ هـ / ٧٥٦ – ١٠٣١م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، ٢٠١٥ /٢٠١٦.
١٩. هجيرة تومي: اللباس في المجمتع الأندلسي، مذكرة لنيل الماجستير، ٢٠٢٥ /٢٠١٦.

رابعًا: المجلات العلمية:

٢٠. أريج كريم حمد هاتف، المرأة الأندلسية العادات والتقاليد والتحدي والتغيير، مجلة كلية التربية للبنات جامعة بغداد، (م)٣٩ عدد (٣)
٢١. أنور محمود زناتي : أوقاف المرأة في الأندلس ودورها الحضاري خلال العصرين الأموي وملوك الطوائف (١٣٨ –٤٧٩ م) (٩٧٨ – ١٠٨٦م) مجله الدراسات العربية.
٢٢. جاسم ياسين الدرويش: دور المرأة في الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتي سقوط غرناطة، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) مجلد ٤١ عدد ٤.
٢٣. جميلة بختان الحربي: الأيدي العاملة في غرناطة بني الأحمر ودورهم في الارتقاء بالحرف والصناعات، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع ٤٣.
٢٤. حسن الواركلي: لمحات من حياة غرناطة النصرية في القرن الثامن الهجري من خلال مسالك ابن لب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع١، ١٩٨٦.
٢٥. راوية عبد الحميد شافع: المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي الأندلسي حتى سقوط قرطبة، مجلة، عين لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٦م.
٢٦. صبحية عودة زعرب: تقنيات السرد الزمن في الرواية التاريخية (ثلاثية غرناطة) رضوى عاشور نموذجًا، مجلة جامعة الزيتونة الأردنية للدراسات الإنسانية والاجتماعية (مجلد ٢) اصدار، ٢٠٢١.
٢٧. مؤمنة حمزة عبد الرحمن: مزايا الأنا والآخر في ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور رؤية فنية حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات الإسكندرية (م) ٢، (ع) ٢٥.